

الفصل الأول

عصر الفارابي

١ - البيئة السياسية

ظل العباسيون عصرًا كاملاً في مجد لا يطاول . ولأمرماً بدأ المجال يفسح للأجنبي ، وبدأ الأتراك والفرس والديلم والسلجوقيون يجدون مجالاً في خدمة الدولة ويعتمد عليهم في الجيش والإدارة . وكان هذا على حساب العرب . فبقدر تدخل هؤلاء والاعتماد عليهم كان إقصاء العرب عن المراكز الحساسة في الدولة . وأمام هذا ، كان من الطبيعي أن يدبّ الضعف في أوصال السيادة العربية ، ويضطرب النظام ، وتعمّ الفوضى ، وتصبح الخلافة رمزاً ليس إلا . . .

وعصر نفوذ الأتراك في الدولة العباسية احتل من تاريخها حوالي قرن من الزمان (٢٣٢ - ٣٢٤ هـ) . فقد بدأ هذا النفوذ يظهر للعيان عندما أراد الخليفة المتوكل تقديم المعتز - وهو ابنه الثاني - في الخلافة على ابنه الأول المنتصر ، فوجدها الأتراك فرصة سانحة للكيد والانتقام من المتوكل ، بعد أن أخفقوا من قبل في اغتياله بدمشق . لقد انتصروا في هذه المرة بمعاونة ابنه الطامع في الخلافة من بعده والحائق على أخيه الأصغر .

وكان من الطبيعي أن يؤمن الأتراك جانبهم فيشيرون على المنتصر بإقصاء أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد خوفاً من الانتقام من قاتل أبيهم ، ففعل ؛ إلا أن علم هدوء الأتراك وتدخلهم في كل صغيرة وكبيرة أدى بالمنتصر إلى أن يغضب عليهم ويسبهم ويقول عنهم إن « هؤلاء قتلة الخلفاء » ، فكان مصيره كمصير أبيه ، نظير ثلاثين ألف دينار أعطاهها الأتراك طيبه الخاص ابن طيفور ففصده بريشة مسمومة ، فلقى حتفه ولما تمض خمسة شهور على خلافته .

وحول الأتراك الخلافة بعد وفاة المنتصر إلى أحد أبناء المعتصم ، فولى المستعين بالله خلافة المسلمين . وقد ازداد في عهده نفوذ الأتراك .

ويمكن أن نستشف من هذه الأحداث ، ما كانت عليه الحالة السياسية أمام النفوذ التركي المتزايد . لقد كان الحذر يسيطر على السلطتين ، سلطة الخليفة من جانب وسلطة الأتراك من جانب آخر . وكانت كل سلطة تبطش بالأخرى لأية شبهة أو أية إشاعة تسمعها عن عزم هذه على الانتقام . وكانت الغلبة تم للأقوى أو للذي يبدأ بالعدوان ويأخذ خصمه على غرة .

تواترت الإشاعات عن عزم المستعين بالله على الفتك بالأتراك ، فعزله هؤلاء ونفوه إلى واسط ثم قتلوه ، وولوا المعتز بن المتوكل خليفة على المسلمين . فكان هذا - بطبيعة الأمر - كالأسير بين أيديهم ، يتوقف بقاؤه على رضاهم . والقصة التالية صورة صادقة لما وصل إليه الحال بالنسبة للخليفة والأتراك . فقد حدث بعد جلوس المعتز على سرير الخلافة ، أن قعد خواصه وأحضروا المنجمين ، وسألوهم قائلين : « انظروا ، كم يعيش وكم يبقى في الخلافة ! » فانبرى ظريف كان في المجلس قائلاً : « أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته » ، فقالوا : « فكم تقول إنه يعيش وكم يملك ؟ » قال : « ما أريد الأتراك » - فضحك كل من كان في المجلس .

كان المعتز يخشى بطش الأتراك ، فحمل سلاحه نهاراً وليلاً ، واصطنع المغاربة والفراغنة كي يتخلص من نفوذهم . ولكن هذا العمل لم يغنه شيئاً ، فقد هبّ الأتراك في وجهه مطالبين برواتبهم . وقبضوا عليه ، ومثلوا به ، فأت قتيلاً . وهكذا كان مصير المهتدى ، الذي ولى الخلافة بعده . أما المعتمد الذي تولى الخلافة بعد المهتدى على أيدي الأتراك بعد أن أخرج من الجوسق الذي كان محبوباً فيه ، فكان على حدّ قول السيوطي في تاريخ خلفاء أمراء المؤمنين « أول خليفة قهر وحجر عليه ووكل به » ^(١) . فلقد شغلته ملذاته ، وترك

أمور الدولة ، بل قسم البلاد بين أخيه الموفق وبين جعفر ابن قائد الأتراك موسى بن بغا . وولى المعتضد الخلافة بعد المعتضد . ثم تولاها ابن المعتضد المكتفى بالله ، وخلفه أخوه المقتدر . ونخلع هذا عن العرش وبُويع الغالب بالله عبد الله بن المعتز . إلا أن أتباعه أعادوه مرة أخرى ، وفي عهده كثرت الفتن والقلاقل وتدخل النساء في أمور الدولة ، وأصبح الأمر والنهي بيد أمه « السيدة » ، كما سماها المؤرخون ، فكانت إذا غضبت أو غضبت قهرمانتها على أحد الوزراء عزل في الحال .

وأمام هذا كله من ضعف الخلفاء وتفاقم نفوذ الأتراك . كان من السهل على حكام الأقاليم أن يعلنوا استقلالهم الداخلى ، بل وجد من بينهم من نصب نفسه خليفة مثل عبد الرحمن الثالث الأموى ، فقد نصب نفسه خليفة على الأندلس (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) ولقب نفسه بأمرير المؤمنين الناصر لدين الله . ولقد وجد من بين الخلفاء من يخضع للأمر الواقع ، فيتخلى عن التشبث بمقاليد الحكم ويعهد فيه إلى أحد الأمراء مكتفياً باللقب وذكر اسمه في خطبة الجمعة ونقشه على السكة . وكان أول من فعل ذلك هو الخليفة الراضى . وبذا أصبح المسلمون تحت ظل نوع من الحكم سمي عصر إمرة الأمراء ، استمر حوالى عشر سنوات (٣٢٤ - ٣٣٤) ، حتى خضعت الخلافة العباسية إلى سلطان آل بويه .

وهكذا كانت هذه الفترة من تاريخ العرب : خلفاء ضعاف ، وتغلغل للنفوذ التركى فى صميم الحكم وأخص خصائص الحاكم ، وتدخل للنساء فى أمور الدولة . وكمن خليفة قتل . وكمن من خليفة مات بعد أن نال من العذاب أشده من ضرب بالدبابيس أو إقامة فى وهج الشمس أو سمل للعيون .

ولقد تعمدنا الحديث عن هذه الفترة من تاريخ المسلمين ، لأنها الفترة التى عاش خلالها الفارابى (وإن لم يكن فيلسوفنا متصلاً بالسياسة) ، فالفارابى على رواية ابن خلكان توفى سنة ٣٣٩ هـ ، عن ثمانين سنة ، ولذا يكون مولده سنة ٢٥٩ هـ .

ولئن كان فيلسوفنا لم يتصل بالسياسة في كثير ولا قليل ، بل آثر عيشة العزلة والتششف ، وفضل أن يظل سابعاً في بحار الفلسفة ، بعيداً عن معمران السياسة وتقلباتها على عكس تلميذه ابن سينا الذي كان له أثر فعال في مجال السياسة ، نقول لئن كان الفارابي لم يتصل بالسياسة ، فقد اتصل ببعض الحكام ، وإن كان اتصاله بهم لم يخرج عن دائرة العلم ، يتكلم معهم باللغة التي يحبونها ، ويسمعهم أنغاماً من آلهة الموسيقى ، فيضحكهم ، ثم يبكيهم ، ثم ينيمهم ويتركهم نياماً .

والحاكم الذي روى لنا التاريخ أن الفارابي قد اتصل به وعاش مدة في كنفه هو سيف الدولة بن حمدان ملك حلب .

٢ - البيئة الاجتماعية

في عهد الخليفة المعتصم دخل المجتمع الإسلامي عنصر جديد ، هو الأتراك ، وأصبح شعب المسلمين يتألف من العرب والفرس والمغاربة والأتراك . ولم يلبث العنصر الأخير ، وقد استعين به في الجيش ، أن أصبح أداة فعالة وقوة يخشى بأسها حتى على الخلفاء أنفسهم ، وهم الذين استعانوا بهم في تقوية نفوذهم . فاضطر هؤلاء إلا أن يبحثوا عن نصير آخر يقيمهم شر غدر الأتراك ، فاستعانوا بجنود مرتزقة من المغاربة والفراغنة والأكراد والديلم . وكان من الأخيرين ما كان من الأولين تدخل في أمور الحكم ، وعبث ، وفساد .

وقد تبعت الطوائف الدينية الطوائف السياسية مدّاً وجزراً ؛ فالسنيون مثلاً كانوا يتمتعون بالحرية والطمأنينة في أثناء سطوع نجم الأتراك وفي عهد إمرة الأمراء ، على عكس الشيعيين الذين لحقهم شيء من الطمأنينة في ظل حكم آل بويه . وبالطبع قام بين الفريقين تنافس وتزاع عنيف خضب أرض المسلمين بالدماء . ولقد تعدى النزاع بعض السنين وبعضهم الآخر حين وقف الحنابلة

دون دفن جثة محمد بن جرير الطبري سنة ٥٣١٠هـ، لأنه لم يذكر اسم أحمد بن حنبل ضمن أسماء الفقهاء في كتابه عن اختلاف الفقهاء .

وقد ظهرت أيضاً طبقة الرقيق ، وكان منهم السود والبيض ، والنساء ، والغلمان ، فقاموا بدور هام في السياسة والحرب في هذا العصر ، وكان منهم الأتراك والديلم والأكراد . ولم تكن طبقة الرقيق من الطبقات الممتهنة ، ولا غصاصة في ذلك فقد كانت أمهات كثير من الخلفاء من الرقيق .

وثمة طائفة أخرى من طوائف المجتمع كانت تتألف من النصارى واليهود ، وهم أهل الذمة كما ساهم المسلمون . وكانوا يعيشون في وفاق مع المسلمين ويتمتعون بالتسامح ، وكان كثيراً ما يحضر الخلفاء احتفالاتهم بأعيادهم .

أما من ناحية العمران ، فقد انتشر حتى عم الأرجاء ، وظهرت فنون الهندسة الشرقية في قصور الخلفاء والأمراء والقادة ؛ فكانت دورهم فخمة ذات اتساع ، تضم حدائق غناء ، وتحتوى على فرش ثمينة . وكانت في جملتها على مثال دور الفرس والروم ، مبنية بالآجر . ومغطاة بالكلس . وكانت تنقسم في العادة إلى أقسام ثلاثة : مقاصير الحرم . وحجرات الضيافة ، وحجرات الخدم . وكانت جدرانها وسقفها محلاة بالفسيفساء المذهبة والرسوم الملونة ، وعلى أسطحها قباب مرفوعة على عمد دقيقة تظهر للعين كأنها معلقة في الفضاء . وكانت قصور الخلفاء تحتوى على أروقة يجتمع فيها الغلمان ، وتسمى على قدر عددهم ، فكانت تسمى مثلاً بالأربعيني أو السبعيني ، وهكذا .

وقد اقتبس العباسيون نظام مجالسهم عن الفرس أيضاً في كل ما عرف فيها من فخامة وترف وبذخ . وانتشرت مجالس الغناء والطرب التي كان يعقدها الخلفاء ويحضرها الشعراء والمغنون والأدباء والموسيقيون وأهل الفكاهة . وهذا ، إن دل على الانغماس في الملذات وعدم العناية بشؤون الدولة ، فإنما يدل من جهة أخرى على حياة الرغد التي كان يحياها الشعب ، وعلى ازدهار الصناعة ونمو التجارة والزراعة . فالصناعات اليدوية كانت متقدمة ، وكانت كل

مدينة مشهورة بنوع خاص من الصناعة يتوارثه الأبناء عن الآباء ، وكان يراعى فى الصناعات ما يحتاج إليه وجهاء المجتمع من تزيين دورهم بأغلى الرياش فانتشرت صناعة السجاد والنسيج والآنية والنحاس . وبطبيعة الحال لم يغفل عما يحتاج إليه عامة الناس فى معاشهم . والتجارة كانت تتبادل على شكل واسع ، وتمتد من المشرق إلى المغرب على ظهور الإبل .

ولقد تفنن الخلفاء فى الطعام ، حتى إنهم كانوا يميزون الشعراء الذين يصفون لهم أصنافه . ولقد كان اللباس الفارسي هو لباس البلاط الرسمي ، فكثرت استعمال الملابس المحلاة بالذهب عند الرسميين ؛ وكان الخليفة هو صاحب الحق فى خلعها على من يشاء . أما لباس الطبقة الراقية فكان عبارة عن سروالة فضفاضة وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة . ولباس العامة كان يشتمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام . ولقد أدخل الخلفاء تغييرات على نظام الملابس . ولكنه كان فى جملة ما يراعى فيه الفخامة . وبالطبع كانت أعيادهم يراعى فى الاحتفال بها الأبهة والعظمة ، وكذلك كل المناسبات الدينية . وكانت مواكبهم تحاط بمظاهر الأبهة .

وكان للمرأة فى ذلك الوقت قسط وافر من الحرية ، مما دعا إلى تدخل بعض النساء فى شئون الحكم ، مثل أم المعتز وأم المقتدر . حتى إن بعض القهرمانات كن يتدخلن فى أمور الدولة . وفى هذا ما تسبب فى ضعف الخلافة العباسية .

وقد اختل حبل الأمن بسبب كثرة الحروب بين الأمراء وغارات الجند ، فأدى ذلك إلى البطالة بين الناس .

٣ - البيئة الدينية

العصر العباسى الثانى ، الذى عاش فيه الفارابى ومات ، تعددت فيه الحركات الدينية تعدد الحركات السياسية سواء بسواء . ثورات شعبية نشرت

مبادئ الشيعة بعد أن انتزعت كثيراً من بلاد الدولة العباسية ، وحركات سياسية ودينية قام بها الخوارج والزنج ، وانتعاش المذهب المعتزلة ، وذيوع المذهب أهل السنة على يدى الأشعرى ثم الغزالي من بعده ، وتطور لبعض آراء المتصوفة .

فقد لجأ أئمة الإسماعيلية - أولاً - إلى نشر دعوتهم في الخفاء بعيداً عن مركز الدولة العباسية . واتخذوا مدينة سلمية (من أعمال حماة بالشام) مركزاً لهم . وجاب أتباعهم خراسان والسند لجذب الأشياع . ولقد اشتهر ميمون القداح بأنه واضح دعامة المذهب الإسماعيلي ، وكان يدعو لفكرته متسراً وهو يزال عمله في قداحة العيون أو استخراج ما غشياها من ماء . ومهد بذلك السبيل لابنه عبد الله بن ميمون ، الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لمذهب الإسماعيلية ، والذى اتخذ مدينة الأهواز مركزاً لنشر دعوته . ولم يكن من المستطاع أن تظل الدعوة سرّاً كما يريد الدعاة ، فقد علم الولى بما يعمله ابن ميمون القداح ، فخشى هذا على نفسه وفرّ إلى البصرة ثم إلى الشام ثم إلى سلمية ومات بها ما بين سنتي ٢٧٠ ، ٢٧٤ هـ ، بعد أن راجت الدعوة على يديه في كثير من بلاد الإسلام . وكان ابن ميمون القداح قد أرسل رجلاً من دعائه هو الحسين الأهوازي إلى سواد الكوفة ، فالتقى هناك بجمدان بن الأشعث المعروف بقرمط ، وضمه إلى الدعوة ، فكان سنداً قوياً في نشرها . وقد اتخذ حمدان قرمط بلدة كلواذا من ضواحي بغداد مركزاً له ، ولم يلبث أن زاد أتباعه ، فنتشج وأمرهم بشراء الأسلحة استعداداً ليوم الفصل . ولقد لقيت الدعوة الإسماعيلية رواجاً عظيماً بين العرب على يديه .

واختلف رجال الشيعة فيما بينهم على رئاسة الدعوة ؛ ولكن المهم ، ونحن بصدد ذكر ما كانت عليه بلاد المسلمين من تيارات متنازعة وحركات متضاربة حينئذ ، أن نذكر أن كثيراً من بلاد المسلمين مثل شمال غرب العراق وبلاد فارس وبلاد الشام وبلاد البحرين واليمن وبلاد المغرب انتشرت فيها دعوة الشيعيين ، وظلت الدعوة في السر تارة ، وافتضح أمرها تارة أخرى ، حتى

قامت دولة الفاطميين في الغرب على يدى عبيد الله المهدي في أواخر سنة ٢٩٦ هـ ، وأصبح للشيعة دولة قوية استطاعت أن تتاوى الدولة العباسية وتنشر دعوتها في جميع أنحاء العالم الإسلامى .

ولقد كانت تعاليم المعتزلة في العصر العباسى الأول ، وخاصة أيام المأمون والمعتمد والواثق ، من التعاليم التى دان بها الخلفاء واعتنقوها و زادوا حياها . فلقد اعتقد هؤلاء الخلفاء في القول بخلق القرآن ، الأمر الذى دعا إلى سجن أحمد بن حنبل لأنه رفض هذا القول . ودعا أيضاً إلى ما هو أكثر من ذلك ، فلقد كان إطلاق أسرى المسلمين في البلاد البيزنطية مقصوراً على القائلين بخلق القرآن ، فمن كان لا يقول بذلك عد خارجاً على الإسلام . وفي العصر العباسى الثانى ، كانت الفلسفة اليونانية قد عرفت بين المشتغلين بالعلوم العقلية ، فأثرت بدورها في تعاليم المعتزلة ، وحاول هؤلاء أن يلائموا بينها وبين العقيدة الإسلامية . ونتج عن ذلك مناقشات في الندوات والمدارس العلمية وخاصة في مدرستى البصرة وبغداد . وكان مدارها بين المعتزلة وأهل السنة من جانب . وبينهم وبين الفلاسفة من جانب آخر . وبدا امتلاء الجو الإسلامى ببجدال عنيف دار حول الأصول الرئيسية للعقيدة الدينية وما ينشأ عنها من فروع .

وعلى الرغم من القوة التى كانت عليها تعاليم المعتزلة بعد أن تأثرت بالفلسفة اليونانية ، فإنها لم تكن المذهب الرسمى للدولة ابتداء من العصر العباسى الثانى ، فقد نهى المتوكل (أول خلفاء هذا العصر) عن القول بخلق القرآن ، فضعفت شوكتهم ، وزادها ضعفاً ثورة أبى الحسن الأشعري عليهم بعد ذلك .

وبظهور الأشعري انتصر مذهب أهل السنة . صحيح أن الأشعري تربى في أحضان مذهب المعتزلة ، ولكنه بعد أن درس المنطق وتسلح بأسلحته رفض تعاليمهم ، وكان ذلك بعد بلوغه الأربعين من عمره ، أى في سنة ٣٠٠ هـ . ولقد كادت ثورة الأشعري أن تقضى على مذهب المعتزلة قضاء تاماً ، كما يذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان على لسان أبى بكر الصيرفى حين يقول :

« كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري ، فحجرهم في أقماع السمسم » .

وظهر في هذا العصر أيضاً بعض غلاة المتصوفين أمثال الحسين بن منصور الخلاج المتوفى سنة ٣٠٩ هـ . وقد بان خطره للعيان في مستهل القرن الرابع الهجري ، وكان ذلك أيام خلافة المقتدر . وكان حامد بن العباس وزير المقتدر يكره الخلاج ، فجعل من امرأته عيناً عليه ، ثم استشهد بها عليه في مجلس ضم كبار القضاة الذين فحصوا كتبه أيضاً وأرأوا فيها من الزينج ما جعلهم يفتون بكفره وإحلال دمه . ولذا صدر أمر الخليفة بضربه ألف سوط وإحراق جثته وإلقاء رمادها في نهر دجلة (١) .

(١) من المعروف أن قتل الخلاج كان لأجل قوله بالخلول والاتحاد والامتزاج بين الخالق والمخلوق . ولكن الأستاذ الدكتور محمد مصطفى حلمي يرى أن الخلاج ينقو الامتزاج بين الله والإنسان وهذا واضح في قوله مخاطباً ربه: « . . . وكما أن ناسوتي مسهلكتك في لاهوتيتك غير مازجة لها ، فلاهوتيتك مستولية على ناسوتي غير مازجة لها » ، وقوله أيضاً : « من ظن أن الإلهية تمتزج بالبشرية ، والبشرية تمتزج بالإلهية ، فقد كفر . فإن الله تعالى تفرد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم ، ولا يشبههم بوجه من الوجوه ولا يشبهونه » . أما الغلو الذي ظهر في بعض أشعاره ، وظهر منه أنه يقول بالاتحاد تارة ، وبالخلول تارة أخرى ، فإنما مرجعه ، كما يقول الدكتور حلمي : « إلى أنه كان صاحب وجد وذوق وحب ، وكان إلى جانب هذا صاحب غيبة ونشوة تحصلان من السكر . . . وكان الخلاج يحكم هذا كله محباً وطافاً دهشاً إلى أقصى حدود الوله والدهش ، فلم يستطع أن يعبر عن مبلغ تمكن الحب الإلهي من قلبه وسيطرته على نفسه ، وإخراجه عن ذات هذه النفس ، وإدخاله في ذات محبوبه ، إلا في هذه العبارات المفعمة بألفاظ الاتحاد والامتزاج والخلول » .

(الحب الإلهي في التصوف الإسلامي للدكتور محمد مصطفى حلمي ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، القاهرة في أول نوفمبر سنة ١٩٦٠) .